IJSSP

المجلة الدولية لنشر الدراسات العلمية
المجلد السابع – العدد الأول – البحث الأول (ص: 1 - 16)
15 – تشرين الأول – 2020 م

www.ijssp.com ISSN: 2707-5184 International Journal of Scientific Studies Publishing

[جغرافيا الوطن بعين الفنّان التشكيليّ التونسي المعاصر]

[هيفاء بالحاج صالح]
[دكتوراه في جماليات الفنون وممارستها - المعهد العالي للفنون الجميلة | سوسة | تونس]

ملخص البحث:

إن التنقّل والترحّل في الفضاء الجغرافي هو تنقّل وجودي وفكري يرافقه إبداع فنيّ، خاصة عندما يكون الإبداع رهان فعل التنقّل داخل جغرافيا الوطن. فخرائطيّة الوطن تجعل من الممارسة التشكيلية التونسية المعاصرة ناقلة لذلك الفعل الإبداعي الذي ينجرّ عنه ولادة مقترحات فنيّة هوويّة مختلفة باختلاف الأمكنة والوسائط وكذلك باختلاف أوجه نظر الفنانين تجاه جغرافيّة وأمكنة وطنهم. في هذا البحث قمنا بالتطرّق إلى بعض التجارب الفنيّة التونسيّة التي في علاقة بالأمكنة وتبحث في خصائصها وهويّتها وهويّة الفرد داخلها والتي تنقل صورة الوطن بالتنّقل داخل جغرافيا المساحات الفنيّة، فيصبح للعمل التشكيلي عندئذ رؤية ذاتية نقديّة بعين الفنان. تلك الرؤيّة هي تساؤل حول خصائص مكان ما وظواهره الاجتماعية المحددة وأحداثه الراهنة داخل الوطن الواحد. وهنا يكمن الاختلاف والتنوّع بين ممارسة وأخرى فهنالك من نقلها في صورة الخريطة، وهنالك من جمع مدنها وأريافها وكائناتها وأشياء منها داخل صورة واحدة، وهنالك من جعل من أطرها وشخصياتها خياليّة بأحداث واقعية نقديّة.

الكلمات المفتاحية: التنقّل الجغرافي، صورة الوطن، الجغرافيا الفنيّة، الواقع والخيال، الخرائطية النقديّة،

Abstract:

in the geographical space is an existential and intellectual movement The mobility and deportation accompanied by artistic creativity, especially when creativity is a bet on the movement of movement within the geography of the country. The nationalism of the homeland makes the Tunisian contemporary plastic practice a transfer for that creative act that results in the birth of various identity artistic proposals in different places and media, as well as in different artists' perspectives towards the The plastic artist is a critical self-view in the artist's eyes. That geography and places of their country. with events specific social phenomena, and its vision is a question about the properties of a place, its with fictitious works and characters frame who made their in the same country. And there are those makes the image of the kelia, which She Tunisian events. The contemporary realistic and critical homeland the meeting point and technical points of view.

Key words: Mobility, Homeland, Geography, Reality, Imagination, Cartography

IJSSP
المجلة الدولية لنشر الدراسات العلمية
المجلد السابع – العدد الأول – البحث الأول (ص: 1 - 16)
15 – تشرين الأول – 2020 م
www.ijssp.com ISSN: 2707-5184 International Journal of Scientific Studies Publishing

مقدمة البحث:

إنّ الترحّل في الفضاء الجغرافي هو تحول وجودي يلامس كل تفاصيل الحياة، فالمكان هو الحامل للذاكرة الجماعيّة الزاخرة بالموروثات الثقافيّة المتنوعة، وهو أيضا مؤثر في الأشخاص المتواجدين في ذلك الفضاء. إذ أنّ فعل التأثّر والتأثير هذا الذي بين الفنّان والمكان جعلنا أمام تنوع في الهويّة الفنيّة داخل الوطن الواحد. فالفنان اليوم يتعقل الفنّ بهويّته النابعة من جغرافيّا وطنه، لذلك نراه يبحث عن الاختلاف والتميز داخل الرقعة الجغرافيّة التي ينتمي إليها، فهو يهتم بخصائصها التي تميزها عن غيرها. تلك الميزة قد يجدها الفنان في الأحداث التاريخيّة التي شهدتها بلاده، أو في قضايا مجتمعه أو في موقعها، أو في سماتها الجغرافيّة التي تختلف فيها عن غيرها من بلدان العالم، كما الحال في كتاب "الأيام" لطه حسين الذي تتمثل فيه الأحداث كلحظات وجوديّة تتبدّل مع تبدّل الأطر المكانيّة، على الرغم من أنّ هذا الكتاب لم يكن فحسب سيّرة ذاتيّة بل كان أيضا تمثيلا لصورة سرديّة تنقل الواقع العربي الأوحد. لذلك فإن الاختلافات الهوويّة كما نعتها الكاتب والمفكّر التونسي "فتحي المسكيني" هي رغبة في تملك الفضاء، قد تكون وليدة الاستعمار الذي عاشته بلداننا العربيّة، فالمسألة هنا وطنيّة بالأساس وبحث للإجابة عن عدة أسئلة كلها تصب في بوتقة ثقافة الوطن.

- الإطار النظري والدراسات السابقة:

لطالما ارتسمت جغرافيا الوطن في لوحات الفنان التونسي الذي اختار سابقا رسم الطبيعة والمعمار فأنتج لوحات فنيّة تُحاكي الطبيعة التونسيّة ومميزاتها التي تُميّزُها عن غيرها، وأنتج أيضا لوحات أخرى تنقّل خصائص العمارة التونسيّة وكل ما يرتبط بها فكانت الحركة التشكيليّة الحديثة بتونس (1894-1984م) سباقة في نقل الموروث الثقافي الذي كان مرجعه التراث العربي الإسلامي، وقد ظهر رواد هذه الحركة أو ما يعرف بالفن المسندي آنذاك الفنان منهم: "الهادي الخياشي (1881-1948م)" و"يحي التركي (1902-1969م)" و"عمار فرحات (1911-1987م)، "على بن سالم (1910-2001م)، و"حاتم المكي (1918-2003م)... ثم يليهم الجيل الثاني وجيل التغيير الجمالي والتجريد... فكانت كل التجارب تعتمد على الرسم كتقنيّة وعلى التراث الثقافي الوطني كموضوع ينهل منه الفنان تجاربه. حتى أصبحت ملامح الفن التونسي تتبدّل وتتشكّل اليوم ضمن تنصيبات تشكيليّة وأعمال تُصنع رقميّا من خلال صور فوتوغرافيّة وفيديوهات تفاعليّة، لتتلون الممارسات التشكيلية بألوان الطبيعة وتتبدّل عند تنقل الفنان بين المدن وعلى الشواطئ والبحار وداخل الخريطة التي تحدد امتداد كل مكان، حاملة معها ذاكرتها وأشياء من هويّتها. وهنا تكمن نقطة التحول التي تنقل الفنان التونسي من تعايشه داخل المكان إلى التأمل فيه وفي دلالاته الوجوديّة العميقة وفي كل أثر ينتج عن ذلك التعايش.

- مشكلة البحث وأسئلتها:

- هل المجال الجغرافي يمكن أن يؤثر في الفنّ؟ وهل يجد الفنان التونسي في انتمائه الهووي ما يثير فيه ملكة التمثلات الجغرافيّة؟
- كيف استطاع الفنان التونسي استغلال جغرافيا الوطن من أجل تقديم تجربة تشكيليّة معاصرة تهتم أساسا برؤيته للواقع والمجتمع اليوم؟
- وكيف قام بتوظيف كل المقترحات التشكيليّة من أجل تقديم تمثلات جغرافيا تنقل صورة الوطن في تجربته مع المكان والخريطة، خاصة وأنّ الفنان التونسي عمل على معطى "الجغرافيا" بكل ما تحتويه من نقل للواقع ونقد للمجتمع والسياسة؟

- فرضيات البحث:

- جغرافيا الوطن انعكاس لصورة المجتمع التونسي المعاصر بكل ما يحمله من أفكار وسلوكات سلبيّة وإيجابيّة.

- الخريطة مرآة الوطن وشكل تجريدي ناقل للنظرة الشموليّة للمكان الذي يقدّم للفرد خصوصيات هوويّة فرديّة وجماعيّة.
- المدينة وطن صغير داخل وطن، وجغرافياه لا تنحصر فحسب على خصائص المكان بل كذلك مكونات ذلك المكان التي قد تبدو غرائبية أحيانا.
- الخيال التشكيلي وعلاقته بالجغرافيا هو جزء من اهتمامات الفنان التونسي المعاصر الذي يتيح لنفسه إمكانيّة النقد والتهكّم.

- أهميّة البحث:

أصبح الفنان التونسي اليوم يتساءل عن كل ما يمكنه أن يحدد انتماءه ويقدم له إمكانية التعرف عن الذات داخل المكان. إذ أضحى الفنان يتقاسم مع المكان اليومي والذكريات والأحداث والمعاناة والفرح والنجاحات. كما يتقاسم الموروثات الثقافية والعادات والتقاليد والانجازات التاريخية والذاكرة الجمّعية التي قامت عليها الحركات الفنيّة في تونس. ويتقاسم أيضا التأثيرات المناخيّة والطبيعيّة وقوة الإضاءة التي تؤثّر في رؤيته للعالم وأيضا في طريقة تفكيره حول ذلك المكان كما أثّرت في الفنانين الغربيين الذين قدموا إلى تونس على غرار "بول كلي Paul Klee 1879-1940م" الذي بهر بطبيعتها ومعمارها وبقوة الألوان التي تولد من كل مكون من مكونات المكان فكانت أعماله تجريدية تعبيريّة سرياليّة بعض الشيء. وكذلك أصبحت تونس بوابة للفنانين الغربيين وملهمة للفنانين التونسيين الذين لم يتوقفوا عن البحث في المكان وجغرافيا الوطن على غرار بلدان المغرب العربي والبلدان العربيّة ككل.

- أهداف البحث:

يهدف هذا البحث إلى إرساء تجربة تشكيليّة معاصرة يبحث في مكانة التمثلات المكانيّة والجغرافيّة لصورة الوطن بعين الفنان التونسي، إذ يمكننا القول أنّ الفنان التونسي عموما استطاع بعودته إلى "جغّرافيا وطنه" البت فيها من أجل أن يكسر رابط التبعيّة أولا، وأن يبني لنفسه أساسات يعتمدها لبناء حداثة تواكب وتنخرط داخل ممارسته الفنيّة. فعودة الفنّان التشكيلي التونسي إلى تراثه الجغرافي والتاريخي والفكري والفلسفي المادي و(اللامادي) كان غاية للبحث عن أساليب التمثلات والتعبيرات الفنّية، وهذا ما جعل رؤية المكان تختلف بين فنان وآخر لكنها تعالج واقع الوطن بزوايا نظر مختلفة، وهذا أيضا ما مهدّ إلى ظهور ممارسة فنّية تشكيليّة تبحث في التأثير الجغرافي على الفنّ. فعمل الفنان التونسي على تثمين دوره في ترسيخ الهويّة الذاتيّة من خلال الهويّة الجماعيّة. حيث يلجأ إلى تسخير المعطي الجغرافي في تجاربه التشكيليّة المعاصرة مستخدما تطلعاته الهوويّة لتكون القادح لاهتمامه بالوطن.

- محددات الدراسة:

لم يعد الفنان التونسى يهتم بجماليّة اللوحة والمكان ونقل صور الطبيعة ونقوش الزربيّة وزخرفات المعمار بل أضحى في تجاربه المعاصرة اليوم يتقاسم قضايا مجتمعه مع المتقبّل. فكما كان يثني على البلاد ويمجدها ويتفاخر بهويّته وانتماءه لها، أصبح أيضا ينقدها ويتهكّم ويبالغ أحيانا في نقل بعض الظواهر والقضايا المنتشرة بها. وعلى الرغم من هذا التنقّل الجغرافي والفكري الذي يؤثر في أسلوب الفنان إلا أنه قد يُبقي على أشياء من هويته التي تعكس انتماءه وأفكاره

- مصطلحات البحث وتعريفاتها

جغرافيا الوطن: إنّ المقصود بجغرافيا الوطن في هذا البحث هو كل مكون من مكونات المكان الذي يعكس هويّة الفنان الوطنيّة، هذه الهويّة هي نابعة من الموروثات الجمعيّة ومن التصورات التشكيليّة تجاه المكان ومن التأويلات النقديّة التي تلمس المجتمع والدولة. فالجغرافيا في هذا المعطى لا تشمل البحار والمحيطات والجبال والطبيعة فحسب بقدر انفتاحها في التجربة المعاصرة على كل جزء من الهويّة الوطنيّة مثل التصور العام للمكان المتمثّل في الخريطة و التصوّر الخاص المتمثّل في المدينة والمساحات المفتوحة والمغلقة، ورؤية الفنان الناقدة للأشخاص والقضايا.

- أداة الدراسة والإجراءات والمنهج المتبع:

1- خريطة الوطن: "بورتري اجتماعي" للفنانة "عائشة الفيلالي"

إنّ حريّة الفنان التشكيلي التونسي التي اكتسبها منذ تأثره بالفن المعاصر الذي يقترح الاستعمالات التقنيّة المختلفة ويقبل المقترحات التشكيليّة المتنوّعة، جعلت منه يخوض في كل المجالات، إذ تعد الفنانة "عائشة الفيلالي(1956)" من الفنانين التونسيين الذين اهتموا في أعمالهم بصورة الوطن. إذ مارست الفنانة التونسية العديد من الاختصاصات التشكيلية كالخزف والنحت وفن التنصيبة والفن الفوتوغرافي. ولمست أيضا العديد من التقنيات مثل تقنية التجميع والنسيج وغيرهم من التقنيات. وقد تميزت "عائشة الفيلالي في مجال التصوير الجرافيكي ورسم المنمنمات. فمزجت في أعمالها بين النقد السياسي والاجتماعي. لذلك غالبا ما تكون لوحاتها وتنصيباتها مكتظة بالتراكيب التي اختارتها بعناية لخدمة قضاياها. إذ لم تكن أعمالها كغيرها من الفنانين الحداثيين، حتى أنها لم تلتجئ إلى رسم الطبيعة والمعمار أو نقل صورة الغابات والصحاري لنقل صورة الوطن، بل قامت بتركيب شكل خريطة بلدها في صور متعددة كما في عملها "لعبة ورق".

قامت "عائشة الفيلالي" في عملها "لعبة ورق" بتكوين مجموعة من الخرائط التي اعتمدت فيها تكرار تركيب خريطة بلادها بعدة وجوه. إذ تعد خرائط "عائشة الفيلالي" محاملا لتمثلاتها التشكيلية ورؤيتها وتصورها الذاتي لصورة الوطن. فكل محمل من هذه المحامل والخرائط أصبح يتمثّل في أبعاده ومساحته كجسد تعددت فيه الخامات والتمثلات التقنيّة والهويّات الثقافيّة، فالفنانة لم تقتصر على تقنيّة التركيب بل لجأت أيضا إلى استعمال الحياكة والكولاج والفوتومنتاج... واعتمدت الفنانة على أسلوب التكرار الذي قدمت فيه الخريطة بوجوه مختلفة وكأنها تبحث عن إجابة واحدة لكل الأسئلة التي تميز هويّة المكان أو عن إجابات عدة مختلفة لكنها تكمّل بعضها البعض، فمرة نراها تملؤها بالصور التذكارية التي تصوّر كل مدينة من مدن البلاد وتقوم بتلصيقها المدينة التي تمثّلها فتكون خريطة واقعيّة للفضاء الجغرافي الخرائطي ذاك. ومرة، تأثث خريطتها بلباس

IJSSP
المجلة الدولية لنشر الدراسات العلمية
المجلد السابع – العدد الأول – البحث الأول (ص: 1 - 16)
15 – تشرين الأول – 2020 م
www.ijssp.com ISSN: 2707-5184 International Journal of Scientific Studies Publishing

العامل اليومى "الدنقري" بحيث تضيف فوقه الأدوات التى تستعمل فى المهن اليدويّة مثل الحدادة والنجارة والفلاحة وغيرهم فتجعل من شكل الخريطة جسدا أدميا غائب تحضر أدواته وملابسه دون أن يكون هو حاضر، لكن غيابه جعل من الخريطة تعوضه ليصبح على شاكلة جسد. ومرة أخرى، كست خريطتها بالمنسوجات المحاكة من خيوط الصوف لتصبح مغطاة بالكامل بنقوش وزخرفات خيطيّة متنوعة الأشكال والألوان ترمز إلى الحرف اليدويّة التي تتميّز بها البلاد في مجال النسيج. ومرة أخرى، ملأت الفنانة خريطتها بصور الأشخاص التي قامت بالتقاط صورهم من الخلف وهم يسيرون ثم جمّعت كل الصور ورتبتها داخل الخريطة التى نوّعت فيها الأشخاص وجعلت منهم يسيرون في نفس الاتجاه وكأنّ بالفنانة تنقل وتنقد واقع المجتمع . كما نوعت الفنانة في المحامل وفي الأشياء التي علّقتها على خريطة بلادها.

تنصيبات خرائطية للفنانة التونسية عائشة الفيلالي تحت عنوان"لعبة ورق" 2011:

تعددت خرائط "عائشة الفيلالي" التي واصلت في تأثيثها محافظةً فيها على نفس الحجم والشكل. فبدا النفس السوسيولوجي واضحا في خرائطها، فهي تلمس في أعمالها المجموعات أكثر من الأفراد، والهويّة الجماعيّة أكثر من الهويّة الفرديّة وهذا ما يحيلنا إلى الواقع الاجتماعي التونسي. إذ راوح العمل بين مجموعة متنوعة من "البورتريهات" الاجتماعيّة التي تعكس رؤيتها للواقع التونسي وقضاياه، **"خاصة وقد سبق لعائشة الفيلالي أن عبّرت في أطروحتها عن موقفها من بعض القضايا التي كانت تشغل المجتمع التونسي والتي كانت في صلب الخطاب الثقافي والسياسي والديني في تونس منذ الاستقلال وحتى فترة الستينات والسبعينات من القرن الماضي"[1].** كما واصلت الفنانة اهتمامها بالقضايا الراهنة التي جعلت من تجاربها التشكيليّة وليدة الأحداث الآنية في البلاد.

تطرقت الفنانة إلى عدة تساؤلات جعلت من الخريطة انعكاس لصورة الطبقة الكادحة في المجتمع من جهة، ومن جهة أخرى، أضحت التنصيبة تمثُّلا للذاكرة في استعمالها للصور التذكاريّة التي صورت الخاصيّة الجماليّة لكل مدينة من مدن البلاد. وقد عمدت الفنانة إلى الإتقان التقني في اعتمادها على أسلوب التركيب بمختلف الخامات فنوعت بين طرح مساءل من الثقافة المحليّة واستلهمت تقنياتها من الثقافات المختلفة الأخرى،

[1] بسمة منصور، إبداع السخرية وسخرية الإبداع في الفن التشكيلي . تجربة عائشة الفيلالي نموذجا، الحوار المتمدن-العدد: 4766 - 2015 / 4 / 2 - 14:29، المحور: الادب والفن، الموقع: http://www.ahewar.org/

IJSSP
المجلة الدولية لنشر الدراسات العلمية
المجلد السابع – العدد الأول – البحث الأول (ص: 1 - 16)
15 – تشرين الأول – 2020 م
www.ijssp.com ISSN: 2707-5184 International Journal of Scientific Studies Publishing

فنوعت الخامات والمواضيع من عمل إلى آخر، **"تمثّل هذا الآخر في الثقافة المحلية القديمة ذات الجذور العربية الإسلامية أو الثقافة الغربية الحديثة" لذلك انطبعت على أعمالها النبرة النقدية الواضحة والخفية للعيان، مفادها الإصلاح والتوجيه[2]".** وراوحت أيضا بين مزج التقنيات الحديثة والمعاصرة في تنصيباتها مثل النسيج والتصوير الفوتوغرافي والفوتومنتاج والتركيب الذي يُظهر هيكل الخريطة بكل دقة في "بورتريهات خرائطيّة" تنقل في كل مرة وجه من وجوه الوطن.

أعمال "عائشة الفيلالي" طريفة، فهي تأخذ هذه الطرافة من الواقع وتقدّمها ضمن خريطة وطنها، **"وقد لا تغيب هذه الصفة عن جميع أعمالها، وبالرجوع إلى معاني السخرية في الفن نجد إرتباطها الوثيق بمعنى الجدّ[3]"،** حيث تُراوح فيها بين السخريّة والنقد للجانب الاجتماعي والتساؤل عن ماهيّة الأثر الفني في الجانب التشكيلي. لذلك تمتاز أعمالها بالغرابة أحيانا والنقد والسخريّة أحيانا أخرى. فنجدها تنشئ علاقات جديدة بين التقنيات والمواضيع وتداخُل الفنون في كل مرة، للكشف عن حقائق اجتماعيّة بأساليب تشكيليّة متنوعة، إذ أنّ **"الفن كشف للحقيقة" ، لأن الفنان "ليس شخصا منعزلا، وإنجاز إبداعه ليس من أجل الإبداع، بل من أجل فائدة المجتمع، حيث إن النشاط الإبداعي يتضمن عامل الإنجاز الإنساني للشخص المبدع، فهو يسعى من أجل إضافة قيم جديدة للميراث الاجتماعي[4]"** لذلك تبدو الفنانة متحررة من كل قيود المحذور فتتبع أسلوبا خاصا بها تلمس فيه الخرائطية التي لم تعهد ممارستها من قبل رغم اهتمامها بمسألة المكان.

لم تهتم الفنانة بمساحات وأماكن وطبيعة جغرافيا وطنها بل بدّلتها بالتفاصيل التي تخصّ المجتمع التونسي الذي وإن غاب شكل الخريطة أدركنا أنّ "عائشة الفيلالي" ترمز إلى مجتمعها بالتحديد، فأنشأت مفهوما جديدا للجغرافيا التي محت الحدود وسعت إلى الوحدة وحذفت خرائطيّة الأمكنة واتجهت نحو مؤثثاتها وأشياء من أجل خلق الحياة داخلها. لكنها أيضا لم تركّز على رؤيّة محددة للخريطة الجغرافيّة المعاصرة بقدر سعيها نحو التنويع الذي يُبعد كل عمل عن الآخر على الرغم من توحيد شكل المحمل فيه.

يذكرنا عمل الفنانة التونسية "عائشة الفيلالي" بخريطة الفنانة "أنات مساجي" Annette Massager"، التي كونت شكل خريطة فرنسا بالألعاب الممزقة كنقل لتصورها الذاتي لصورة وطنها التي شكّلتها من بقايا ذكريات الطفولة. استعمال "أنات مساجي" للألعاب لرسم الخريطة ربما يكون تعلق أو حنين أو ربما يكون لوم أو ربما هو بحث عن مكان وكذلك تسعى الفنانة التونسية "عائشة الفيلالي" التي ما انفكت تبحث لها عن مكان داخل الخرائط المتعددة تلك التي تتتبع غايتها الفنيّة عبر تشكيل جغرافيا الوطن انطلاقا من رؤيتها الذاتيّة للواقع والمجتمع وللدولة.

اختلف الفنانون في تصوير المكان الذي ينتمون إليه، واختلفت معهم التجارب التشكيلية التي تعنى بالمقترحات الجغرافية والخرائطية للمكان، فأنتجوا ممارسات تشكيلية تحاكي صورة الوطن والمجتمع وتسرد وتنقد في نفس الوقت واقعهم. فاختلفت الرؤى بين الفنانين واختلفت اهتماماتهم الفنية التي ترتكز بالأساس على تقديم

[2] بسمة منصور، إبداع السخرية وسخرية الإبداع في الفن التشكيلي . تجربة عائشة الفيلالي نموذجا، الحوار المتمدن-العدد: 4766 - 2015 / 4 / 2 - 14:29، المحور: الادب والفن، الموقع: http://www.ahewar.org/

[3] بسمة منصور، إبداع السخرية وسخرية الإبداع في الفن التشكيلي . تجربة عائشة الفيلالي نموذجا، الحوار المتمدن-العدد: 4766 - 2015 / 4 / 2 - 14:29، المحور: الادب والفن، الموقع: http://www.ahewar.org/

[4] روشكا ألكسندر ، الإبداع العام والخاص، ترجمة: غسان عبد الحي أبو فخر، ص 22 و23

تعريفات عدة لرأيهم في الوطن. فكان لأعمال "نادية الجلاصي" مثل تجارب "عائشة الفيلالي"، تعريفاتها الخاصة لجغرافيا وطنها التي لم تكن كغيرها من التعريفات خاصة وأنها اعتمدت على تحديد الأمكنة التي لخصتها في صورة "المدينة" أو مكان من المدينة، على عكس "عائشة الفيلالي" التي إختارت أن تهتم بخريطة تونس كاملة. فكيف كانت مدينة "ناديّة الجلاصي" انعكاسا لجغرافيا الوطن؟

2- المدن المكتظّة في أعمال الفنانة التشكيليّة "نادية الجلاصي"

يبحث الفنان التونسي في تحريك العقل الناقد الذي يهدف بالأساس إلى تحريك ملكة التأويل وقراءة ما خلف الصورة وأبعادها السيميولوجية. لذلك كان الفنان التونسي قد **"انتفض من دون الدفاع عن أي "جدار هووي" نهائي لنفسه، بل كذوات حرة وجموع حرة، حيث معنى الحريّة هنا لا علاقة له بأي معياريّة قانونيّة أو قوميّة أو منظومة عقديّة بعينها[5]"**. لذلك نراه يقدم فنّا يلامس الهويّة في بعدها الرمزي ويتطلّع إلى إنتاج أعمال فنيّة تهتم بكل المجالات وحتى السياسيّة منها وتنقدها كلها دون هوادة ودون حواجز المحذور. فالجانب السياسي لطالما كان رفيق الأعمال التشكيليّة القديمة والحديثة والمعاصرة، وقد اهتمت به "عائشة الفيلالي" وكذلك الفنانة التونسيّة "نادية الجلاصي" وغيرها من الفنانين الذين راوحوا بين الفن والسياسة من أجل تشكيل صورة الوطن والمدن التي تحتويه.

المدينة والناس والشوارع، الحارات والأزقة والمساحات الخضراء الهادئة والمناطق الأخرى القاحلة، المعمار والطرق والموانئ والبحار كلها أجزاء من المدينة. المدينة وطن صغير داخل وطن، وكل فنان له حرية تقديم خريطة بلده ومدنها بحسب ما يريد أن يراها عليه أو ما تحمله من ذكريات. أمّا مدينة الفنّانة التونسيّة "نادية الجلاصي" ليست كباقي المدن، غريبة بعض الشيء أو ربما هي أكثر وضوحا من كل المدن التي قد تعترضك في شوارع "تونس". كل مكونات المدينة تضعها "نادية الجلاصي" أمام عينيك في لوحة مكتظة في جزء منها ولا عجب من أن تكون فارغة تغمرها الغيوم في هدوء تام في باقي اللوحة.

"نادية الجلاصي" (1958) هي فنانة وأستاذة أكاديمية بالمعهد العالي للفنون الجميلة بتونس، وتعد من الفنانين التونسيين الذين اهتموا بالقضايا الإيديولوجية والسوسيولوجي عامة، تبحث في قضايا الفرد والمجتمع وانتماءاته المختلفة. أعمالها غالبا ما تحدث ضجة، إذ تؤمن الفنانة بأن **"نذهب إلى أنه آن الأوان لتحدث النقلة النوعية في مسار الأكاديميات العربيات[6]"**لذلك تعرضت الفنانة إلى عدة مشاكل جراء جُرأة الطرح التشكيلي الذي تمارسه في أعمالها، لذلك كانت أعمالها نقديّة ساخرة وخاصة في الآونة الأخيرة. من جهة أخرى، نوعت الفنانة في الأساليب التشكيلية فعملت على فن التنصيبة كما مارست تقنيّة الفوتوغرافيا التي مكنتها من التنقل في أرجاء البلاد والتقاط صور للمدينة.

قامت الفنانة بمعرض تحت عنوان "فاتشاتا Fatchata" سنة 2013 الذي قدّمت فيه وجه من وجوه مدن بلادها، فكانت مدنها تُصوّر فوتوغرافيّا وكذلك كان يصوّر كل جزء ومكوّن في اللوحة. استعملت الفنانة في لوحاتها تقنية الفوتومنتاج إذ قامت بإعادة تركيب الصور التي كانت قد التقطتها سابقا لأمكنة وأشياء من المدينة. ذلك

[5] طارق حسن، "دستورانية ما بعد انفجارات 2011: قراءات في تجارب المغرب وتونس ومصر"، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، 2016، ص 50

[6] قراميأمال ، مقال تحت عنوان "قد آن أوان إزالة الحجب" من مؤتمر فيلادلفيا التاسع عشر "المرأة التجليات وآفاق المستقبل"، جامعة فيلادلفيا كلية الآداب والفنون، 2016، ص 18

IJSSP
المجلة الدولية لنشر الدراسات العلمية
المجلد السابع – العدد الأول – البحث الأول (ص: 1 - 16)
15 – تشرين الأول – 2020 م
www.ijssp.com ISSN: 2707-5184 International Journal of Scientific Studies Publishing

التركيب أو "الفوتومونتاج" يشبه كثيرا الأسلوب السريالي.حيوانات فوق مباني، كتابة على جدران الدكاكين والمنازل، ألوان مختلفة تبرز فيها قوة الإضاءة وسماء صافيّة تجعل للعين مكانا ترتاح فيه بعد رحلة الألوان والأشكال المكتظة تلك. ضوضاء وصخب في الأسفل وصفاء وراحة في الأعلى. تركيبة مختلفة المكونات جمّعت فيها "نادية الجلاصي" بين الكائنات الحيّة والمعمار تبدو كواجهات لدكاكين مُليئة جدرانها باللافتات التي كتبت عليها أسماء الدكاكين وأثاث تناثر هنا وهناك على تلك الجدران فزادها صخب لوني وهندسة تركيبيّة متوازيّة في النصف الأسف من اللوحة. أمّا في النصف الذاتي فيعلوه هدوء السماء التى تُظهر أشكال حيوانات جعلتها الفنانة منظمة فوق تلك المباني. فكانت الصور تحاكي ميتافيزيقيا المجتمع وجغرافيّة الوطن المبعثرة التي جمّعتها كلها داخل صورة واحدة.

مجموعة من الصور مصنوعة بتقنيّة الفوتومونتاج للفنانة "نادية الجلاصي" تحت عنوان "فاتشاتاFATCHATA 2014/2013" "

يبدو أنّ تسميات الأعمال غريبة ومألوفة في ذات الوقت مثل "سفينة نوح" "شيشة" "كليماتزور"... لترمز كل تسميّة إلى مدينة من مدن "نادية الجلاصي"، مع أنّ عناصرها مألوفة وتُمثل العيش المشترك، إلا أنها مكتظة وفوضوية بعض الشيء رغم ترتيبها الدقيق والمحكم في فضاء اللوحة. إذ يعدّ المبنى عنصرا جوهريّا في أعمال "نادية الجلاصي" حيث ذهبت تبحث من خلاله عن تمثلات الهويّة فوق أسوار المدينة.

كل حائط من حيطان مباني "نادية الجلاصي" يحكى حكاية ما، إن كان ذلك من خلال بعض الخربشات أو الكتابات المرسومة عليه أو من خلال ما عُلّق عليه من أشياء غايتها التعريف بذلك المبنى أو الدكان. أمّا كل حائط من تلك الحيطان فهو يرسم هويّة مدينة من المدن التونسيّة دون أن تتجول فيها، حيث تجد كل مكونات المدينة معروضة أمام ناظريك، إذ أنّ أكثر المكونات حضورا إضافة إلى الدكاكين التي تمتد على أكثر من منتصف اللوحة هم الحيوانات الذين قامت الفنانة بتلصيق صورهم فوق تلك المباني لتصنع من لوحاتها بعدا ميتافيزيقيا.

من جهة أخرى، يبدو أن الفنانة تنقد الجانب الاستهلاكي في عملها هذا، حيث تقوم بتصوير الدكاكين والأماكن التي لها علاقة بملصقات البيع والشراء التي تكتب على جدرانهم، إذ **"ينزع الفنانون المعاصرون إلى تناول قضية الثقافة الاستهلاكية بافتتان وقلق، وثمة سبب وجيه لكل ردة فعل منهما؛ فالافتتان سببه أن النزعة الاستهلاكية يبدو أنها تتحول إلى سمة ثقافية على نحو متزايد، فاهتمامها بالبيع أو بمجرد عرض الصور والأصوات والكلمات يضاهي اهتمامها بالأشياء المادية[7]."**لذلك تعد "النزعة الاستهلاكية" من الظواهر التي

[7]ستالابراس "جوليان"، "الفن المعاصر، مقدمة قصيرة جدا"، ترجمة "مروة عبد الفتاح شحاتة"، مراجعة "ضياء وزّاد"، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، الطبعة الأولى، مصر 2014، ص 57

IJSSP
المجلة الدولية لنشر الدراسات العلمية
المجلد السابع – العدد الأول – البحث الأول (ص: 1 - 16)
15 – تشرين الأول – 2020 م
www.ijssp.com ISSN: 2707-5184 International Journal of Scientific Studies Publishing

اعتنت بها الممارسات التشكيليّة التونسية المعاصرة ، كما سبق للممارسات العالمية الاهتمام بها. ذلك أنّها تنقل من خلال صورها تعريفات المجتمع الذي تتوجّه إليه.

يبدو أن الفنانة اختارت تسمية أحد أعمالها بـ "سفينة نوح" كترميز للعالم الذي يشترك فيه الإنسان مع الحيوان والنبات والأشياء، كل تلك المكوّنات استوحتها "نادية الجلاصي" من السفينة، إذ جعلت من سلسلة أعمالها تلك ترمز إلى أسلوب عيش مجتمع تجمعهم نفس الرقعة الجغرافية ونفس المشاهد الواقعيّة ونفس الهويّة. كما عملت الفنانة أيضا على قلب الصورة إذ جعلت من الحيوانات يقفون فوق أسوار دكاكينها في خط منتصف اللوحة بين السماء والمبنى، لتعمل على خدمة الأسلوب السريالي الغرائبي بحيث جعلت من المكونات اللوحة تأخذ مواقع غير موقعها الفعلي.

أعمال "نادية الجلاص" مثل أعمال الفنانة "عائشة الفيلالي" تلامس جغرافيا وطنهم كل بأسلوبها الخاص والنقطة التي تريد التركيز عليها في المدينة أو داخل الخريطة، أمّا الجغرافيا فهي تتمثل في وجوه عدة، وأمّا الوطن فهو القاسم المشترك الذي ولد اهتماما فنيا بدأ يذيع صيته في الآونة الأخيرة مع الممارسة التونسية المعاصرة التي تهتم بالبحث عن الهويّة وعن الانتماء، فهو يبحث في الانتماء بالأساس ويسير نحو حلّ مشكل الهويّة حيث أدرك الفنّان جيدا كيفيّة التعامل مع المساحة التشّكيليّة انطلاقا من المساحة الجغرافيّة التي ينتمي إليها، فأضحى يجول بين ضفتين ذهابا وإيابا.

إنّ لعبة المساحات تقود الفنان نحو ممارسة تشكيليّة تُعنى بالفضاء، والتنقل هو الخيط الذي بمقتضاه يشدّ الفنان زمام رحلته داخل الخريطة. إذ **" يشكل الفن المعاصر تحديا للأفكار التقليدية للعمل الفنّي وللجمهور وللفنان نفسه، وهذا ما ساهم في إحداث تغيير نموذجي في الممارسة الفنية التقليدية. وتحول الأمر من التركيز على العمل الفنّي نفسه إلى التركيز على إمكانات ما بعد العمل الفنّي[8]".** لذلك سلك الفنان التونسي منهجا تشكيليا خاصا به في تقديم جغرافيا وطنه فكان لكل فنان أسلوبه الذي يميزه عن غيره، وكذلك الفنان"وسام العابد" الذي خاض رحلته التشكيليّة رفقة شخصياته الخيالية التي ساعدته على ترك بصمته داخل جغرافيا وطنه، فكيف كانت تمثلات تلك الجغرافيا في أعمال "وسام العابد"؟

3- الجغرافيا الخياليّة للفنان التشكيلي التونسي "وسام العابد"

اتجه كل فنان تشكيلي تونسي إلى سلك طريق خاص به يقدم من خلاله تصوراته للأشكال التي تناسب مقترحاته تجاه الوطن من خلال رؤية ذاتية تُعنى بالمكان والأشخاص وواقعهم والمجتمع وقضاياه. حيث سعى الفنان جاهدا إلى البحث عن تمثلات لهويته داخل صورة الوطن. فراح يجوب البلاد شمالا وجنوبا، شرقا وغربا متأملا في العثور على ما يصبو إليه وما يلبي إرهاصاته الفنيّة لإثبات انتماءه الوطني. فغدا الفنان يبدع في تأويلاته الفنيّة وتنمية قدرته آلياته على النقل والنقد، حتى أصبحنا معنيون بفهم غاياته التشكيليّة، **"كما أننا مدعوون إلى تثوير آليات الفهم وأدوات التفكيك بعد أن تغيرت "الثوابت"، وبانت إرهاصات التحرّر[9]"** من أجل تأويل وتفسير

[8] قسومي طلال،"سجال الهويّة بين ثنائية الغرب-الشرق في الخطاب التشكيلي العربي المعاصر –قراءة لتجربة –منير فاطمي"، الأدب والفن، 2013/01/16. m.ahewar.org

[9] قرامي أمال ، مقال تحت عنوان "قد آن أوان إزالة الحجب" من مؤتمر فيلادلفيا التاسع عشر "المرأة التجليات وآفاق المستقبل"، جامعة فيلادلفيا كلية الآداب والفنون، 2016، ص 17

مقصديّة الفنان التشكيلي التونسي التي كانت جغرافيا الوطن منفذه لتقديم قضايا مجتمعه بعدة وجوه وبمختلف التقنيات.

يلتجئ الفنان التشكيلي التونسي "وسام العابد" إلى تخيل المكان والشخصيات والأحداث وقد يحصل أيضا أن تكون تلك الأحداث مشابهة للواقع برؤيّة نقديّة تهكميّة، على عكس "عائشة الفيلالي" و"نادية الجلاص" اللتان يعملان على نقل صورة مشابهة للواقع في أعمالهم التشكيليّة حيث يُصّران على عدم الهروب من النَفَسْ الواقعي النقدي عندهم. وقد طرح الفنان "وسام العابد" مسألة التنقل داخل المكان، فاعتمد" في تنقلاته تلك على شخصياته الخياليّة التي يخلّفها وراءه وهو يتجوّل في المكان، فراح يرسمها هنا وهناك، على الجدران، وفوق الأسطح وفي كل مكان يرى فيه ترابط بين شخصياته والموضوع، لينقل لنا حكايات تخيلية نقدية من نسج خياله الذي بناه وفق معتقدات اجتماعيّة ووقائع فلسفيّة وفنيّة.

يُعد الفنان التشكيلي التونسي "وسام العابد 1977" من الفنانين الذين ذاع صيتهم في الآونة الأخيرة. فهو ينشط في عديد المعارض والتظاهرات الفنية المختلفة، كما يدرّس بالمعهد العالي للفنون الجميلة بسوسة. وقد قام بمعارض فرديّة وجماعيّة فعمد إلى إتباع منهج فنّي متفرّد في خلق الشخصيات الخياليّة والتعامل معها بأسلوب نقدي هي موزّعة داخل الفضاء الجغرافي. فكانت الأعمال بمثابة إحياء للذاكرة الجمعية للمكان الذي تُرسم فيه، فالفنان يبحث في كل مكان عن مميزاته التي ينقلها في رسوماته الجداريّة الضخمة أحيانا أو ينقلها في لوحاته التي يعتمد فيها على الخيال بالأساس.

أنجز الفنان "وسام العابد" معرضا شخصيا تحت عنوان "خطوط الهروب" Lignes de fuite" بفضاء المكتبة الثقافية Librairie Culturel" في سوسة سنة 2014، قام فيه بعرض العديد من اللوحات تسير على منهج تسلسلي تشكيلي. إذ يبدو أنه اعتمد فيه على الأسلوب الأقلي الذي تمثّل في الاقتصار على الخط في رسم شخصياته الخياليّة وبعض الأشكال البسيطة. فكانت الرسومات تبدو سرياليّة غرائبية تتمثّل في شخصيات خياليّة برؤوس كبيرة وأجساد شبه إنسانيّة أحيانا وحيوانيّة أخرى. هذه الشخوص الغريبة تميز أسلوب الفنان "وسام العابد" في الرسم.

تنوعت المحامل في هذا المعرض التي كانت معظمها ورقيّة، فاستخدم الفنان ورق الاكواريل والورق الشفاف والورق المقوى وغيرهم من الأوراق التي كان بعضها مؤطر وبعضها الآخر من دون إطار. فتظهر الأعمال كلها في علاقة مترابطة، مما يظهرها وكأنها تسير في إتجاه "خط هروب' واحد. كما تنوعت الأمكنة بتنوع الفضاءات المرسومة، فتنقّل الفنان بين البر والبحر وفي السماء بشخصياته الخياليّة تلك، وتنوعت أيضا الأحداث فراوح فيها بين التأزم والانفراج الذي يظهر في هدوء الشخصيات تارة واضطرابها طورا.

IJSSP
المجلة الدولية لنشر الدراسات العلمية
المجلد السابع – العدد الأول – البحث الأول (ص: 1 - 16)
15 – تشرين الأول – 2020 م
www.ijssp.com ISSN: 2707-5184 International Journal of Scientific Studies Publishing

معرض الفنان "وسام العابد" تحت عنوان "خطوط الهروب" Lignes de fuite" بفضاء المكتبة الثقافية "Librairie Culturel" بمدينة سوسة بتونس سنة 2014

تبدو تلك الشخصيات كنسخ للشخصية الرئيسية بما أنها متشابهة ومتكررة. فتلك الشخصيّة التي شُكّلت بيد الفنان هي أكثر الشخصيات استعمالا في أعماله يقول الفنان "وسام العابد" في لقاء له **"آخر عمل كان لوحة، وهي امتداد لعالم الشخوص التي دأبتُ على رسمها منذ مدّة، شخوص تتميّز بكبر الرأس وضمور باقي الجسد، تحتلّ تعابير الوجه فيها أهمية كبيرة، أحاول من خلالها اختزال الذات الإنسانية في فرحها أو حزنها، في نشوتها أو معاناتها[10]".** إذ تظهر الشخصية الرئيسية التي رسمت الفنان بخط واحد أسود متواصل، تظهر بملامح كبيرة داخل رأس ضخم وجسد صغير متغير نسبيّا بين جسد الإنساني و جسد الحيواني الذي يتمثّل في الطير. قد تتمطط اليد ثم تتضخّم وأحيانا أخرى تتبدّل لتعوضها الأجنحة. ذلك الرأس الضخم قُسّم على نصفين في مستوى العين والأنف. أمّا تلك العينين الجاحظتين فيبدو أنهما تفكران وتريان ما لا تراه العين المجردة التي يتميّز بها الإنسان بحجمها ذاك. أما الأنف الكبير فيبدو أنه كرمز لحب الاطّلاع والاكتشاف وحب المعرفة والتدبّر أيضا.

تخرج الشخصيات الرئيسية في بعض الأحيان من محاملها المؤطرة لتحلّق عاليا بجناحيها الكبيرتين وكأنها تبحث عن شيء أو تريد اكتشاف العالم من فوق مثل ما فعل "ايكاروس". لا ندرك أحيانا أهي تطير أم تسبح، فهي تأبى السير عن الأقدام. في هجرتها "رحلة أوديسية" وفي ملامحها جماليّة غريب تجعلنا نتساءل، من أين أتى الفنان بهذه الشخوص؟ كيف تصوّرهم وصوّرهم؟ وما علاقتهم بالمكان وجغرافيا الوطن؟ العديد من الأسئلة التي تخالج فكرنا وتجعلنا نخمن في رمزيّة كل شكل وكل عمل على حد وعلاقته بالمكان الذي رسمت فيه.

تتوالد الشخصيات من تلك الشخصيّة وتتكاثر وتتضخم بالتدريج من لوحة إلى أخرى، فتتكرر الأشكال وتتكرر الحركات مع تكرار الشخصيات التي أختار الفنان أن يرسمها بخطوط سوداء على خلفيات بيضاء. كما تؤثث تلك الرسومات بعض الجمل والكلمات الموضوعة هنا وهناك، اختارها "وسام العابد" أن تكتب باللهجة التونسية. فاهتمام الفنان بمسألة التنقل كان واضحا في كل عمل من الأعمال المقدمة في المعرض، يقول الفنان **" طبيعة تجربتي الفنية تحتّم عليّ تغييراً متواصلاً في الأنساق. فبين الرسم الحرّ على مختلف المحامل، والتنصيب والتجميع، تتنوّع إنتاجاتي الفنية لكنها تنصبّ جميعها، رغم تنوّعها، في معالجة مسائل التنقل والغيريّة**

[10] العابد وسام، العربي الجديد، تونس، 14 سبتمبر 2017. Alaraby.co.uk

IJSSP
المجلة الدولية لنشر الدراسات العلمية
المجلد السابع – العدد الأول – البحث الأول (ص: 1 - 16)
15 – تشرين الأول – 2020 م
www.ijssp.com ISSN: 2707-5184 International Journal of Scientific Studies Publishing

والعلاقة مع الآخر"[11]. إذ تبدو الشخصيات في حالة تنقل دائم مع كل الأشياء التي ترافقها، وكذلك الكلمات التي ترمز هي الأخرى إلى التنقل ولو أنها جمل رمزية باللهجة العاميّة (في الريح، برة عاد...)، كما ترمز أيضا كدافع للسفر والهجرة، فالفنان أختار كلماته بإحكام لتقرأ بمعنيين والمتلقي له حريّة اختيار المعنى بحسب فهمه للعمل.

يستعمل الفنان تقنيّة حبر على ورق فنراه يرسم بالقلم الحبري الملون الذي يُستعمل أكثر في الكتابة مثل الأسود الذي يعد الأكثر إستعمالا، والأحمر والأرزاق. فتظهر الأعمال مثل بحث، بحث عن شخصية أو عن كلمات مناسبة أو بحث عن مكان. كل الأشياء في أعماله تحتكم إلى عنوان معرضه "خطوط الهروب" فالأعمال تبدو مثل روايّة أو قصة تحكي فكرة الهروب التي استوطنت برؤوس شخصياته الضخمة، ويبدو أنها أثرت على عيناها الكبيرتان اللتان تبدوان كبوصلة تحدد اتجاه تنقلات الشخصيات، فنرى العين هي الأخرى تتحرك يمينا وشمالا وشرقا وغربا تبحث لها ربما عن سبيل للهروب. وقد يحصل أن تتوه اتجاهات العيون فتتناقض الواحدة مع الأخرى فندرك حالة الضياع التي عليها الشخصيات.

عمل بتقنية حبر على ورق للفنان "وسام العابد" 2009

في أعماله هذه قد تتبلّل الأوراق جراء سكب الماء عليها، وقد تجعل خربشات القلم من اللوحة تبدو كجذاذة أو بحث خطي لشخص في حالة تفكير دائم، أما أحداثها فهي غريبة ومتناقضة فيها ضياع وبحث عن سبيل للهروب أو طريق وسفر وعبارات تدلّ على رحلة في سماء أو في محيط من المحيطات، فلا نستطيع الجزم بأنها سماء ولا بأنها بحر لأن ذلك الحبر المسكوب قد نراه أحيانا غيوم وسحاب يحمل الشخصيات الصغيرة، وقد يظهر أحيانا كموج جارف.

لا تقتصر الكتابة على عمل بعينه، بل نجدها في العديد من الأعمال. أما طريقة "وسام العابد" في الكتابة فهي ليست كغيرها من الكتابات. فهو يخلق لنفسه أسلوبا ذاتيا يشبه "الخط الفارسي"، لكنه متأثر بالحركة التي تغمر اللوحات. إذ نراه يتّبع الشكل الدائري أحيانا ثم يميل عن السطر أحيانا أخرى، وقد يحصل أن يقوم الفنان بشطب بعض الكلمات لتصبح تلك الأسطر رسالة كتبتها شخصيات اللوحة أو كرؤية لما يدور في ذهنانها.

يعتمد الفنان في أعماله كثيرا على أسلوب الترميز كما يعلب على التناقضات من خلال شخصياته، فنرى شخصيات صغيرة تتحكم في شخصيات كبيرة تائهة في رحاب اللوحة. هذا الرسم يبدو أنه رمز لعمليّة الهروب أو الحرقة التي تحصل في بلاده عند الهجرة خلسة من تونس في اتجاه أوروبا. فكل حوارات اللوحة تبدو كرصد

[11] العابد وسام، العربي الجديد، تونس، 14 سبتمبر 2017. Alaraby.co.uk

للتحركات التي يقوم بها المهاجرون خلال تنظيم تلك العمليّة. وبالرغم من أن رسم الفنان لهذه العمليّة يبدو مختلفا عن غيره من الفنانين الذين اختاروا تصوير أعمالهم بأكثر واقعيّة، إلا أن الفنان أتجه أكثر لاستعمال الخيال والمبالغة من أجل إيصال الفكرة المأمولة للمتلقي، يقول الفنان "وسام العابد" **"لا هوادة مع الفن خاصة إذا ما اعتُبر كنسق تنقُّل وولوج مستمر في الأشياء"[12].** فالفنان ينتقل في المكان كما يتنقل في الفكرة، فيستهلك كل ما يخدم تنقله ذلك، لذلك نراه وكأنه ينقل لنا عمليّة الهجرة السرية بأسلوبه الخاص بمزيج بين الخيال والواقع وبين النقد والجد، عابرا بذلك حدود المدن التونسيّة ومتنقّلا في جغرافياها.

كل شيء في لوحات "وسام العابد ينوي الرحيل: الأشخاص والأشياء والكلمات وحتى الأفكار، كلها تشد أحزمتها للرحيل بكل السبل المتاحة، فلا يهم كيف ترحل بقدر ما يهمهم الوصول إلى الضفة الأخرى من العالم. فهي هجرة مدروسة لكنها سريّة تقوم بالأساس على وجود المجموعة ليتمكن الأفراد من الرحيل، لكل فرد دوره في هذه العملية فهنالك من يراقب وهنالك من يساعد وهنالك من يهاجر. هي محاولات للهجرة التي تدور أحداثها داخل خريطة بلاده، يبدو أنها لم تقدر على السفر فهي منتشرة داخل كل مكان من أمكان البلاد.

جغرافيا الوطن لدى "وسام العابد" هي جغرافيا متحرّكة ومتحوّلة لا تستقر على مكان ولا على لحظات ولا حتى على أحداث فإمكانية التنقل تبدو مباحة داخل حدود الوطن، أمّا اختراق الحدود فهو خط أحمر للشخصيات والأحداث الذي يجمّد فيها الفنان اللحظة معلنا عن خطر الهجرة.

- نتائج البحث والمناقشات:

تختلف تجربة "وسام العابد" مع جغرافيا الوطن، عن تجربة "نادية الجلاصي" و"عائشة الفيلالي"، ويختلف معه أسلوبه التشكيلي. لكل تجربة فراديتها ولكل عمل من الأعمال جانب من جوانب الاهتمام بالمكان والجغرافيا التي يتميّز بها الوطن. إذ يلتجئ الفنان "وسام العابد" إلى الخيال والنقد الذي يشبه الكاريكاتور فيجعل من شخصياته تسرد حكاياتها مع المكان وهي تتنقّل في سماء وبحر وبر البلاد، فتنقل تلك الخياليّة المفرطة واقعية مبطنة هي في علاقة وطيدة بالواقع والمجتمع التونسي الذي يريد "الهجرة" مهما كلّفته السبل.

كل فنان يسعى إلى تقديم إشكاليّة من الإشكاليات التي يطرحها الوطن، معتمدا في ذلك على جغرافيا تنقلاته الفكرية أو التقنية أو الاثنان معا. إذ ترى "عائشة الفيلالي" في جغرافيا وطنها خرائط متعددة تقدّم فيها تعريفات عدة له فتبدو أنها تنقد في خارطة وتمجّد في أخرى، فهي تهتم في معظم خرائطها على فئة معينة من المجتمع، الفئة الكادحة التي تكوّن ملامح خريطتها، فهي تعمل بالساعد واليد لكنها تسير على منهج فكري علم موحّد. أما "نادية الجلاصي" فهي تُركّب الصور وتُجمّعها لتخلق بهم مدينة مكتظة بالأشياء والأشكال. دكاكين فوق أسطحها حيوانات وفوق الحيوانات سماء. هذا التصوّر الميتافيزيقي قد يحملنا ربما إلى رؤية نقديّة تهكّمية للجانب الاجتماعي والسياسي في البلاد الذي قلبت فيه الموازين السياسيّة التي فرفعت من شأن البعض إلى مراتب عليا ربما قد لا ترتقي إليها. فكانت اهتمامات "عائشة الفيلالي" عند نقل جغرافيا الوطن اجتماعية بالأساس وكان اهتمامات "نادية الجلاصي" سياسيّة أكثر، أما "وسام العابد" فقد كان ملما بكل من الجانب الاجتماعي والسياسي الذي كان يُخفيه تحت سترة النقد والإضحاك. ذلك النقد التشكيلي المبطن جعل من شخصياته الخيالية تتحرّك وتتنقّل أينما أرادت داخل المكان دون أن تجتاز حدود الوطن. إذ يطرح كل فنان منهم في كل مرة قضايا العصر المطروحة في المجتمع التونسي. **"والسؤال الذي يفرض نفسه اليوم هو كيف يمكن لخصوصيّة المكان ألاّ**

[12] العابد وسام، العربي الجديد، تونس، 14 سبتمبر 2017. Alaraby.co.uk

IJSSP
المجلة الدولية لنشر الدراسات العلمية
المجلد السابع – العدد الأول – البحث الأول (ص: 1 - 16)
15 – تشرين الأول – 2020 م
www.ijssp.com ISSN: 2707-5184 International Journal of Scientific Studies Publishing

تعيش في عزلة عن قضايا العصر المطروحة مثل العولمة وحوار الحضارات والهويّة الثقافيّة الوطنيّة، وهي قضايا نشتم منها رائحة الالتهام لخصوصيات الأمكنة وثقافاتها الوطنيّة"[13]. فلكل فنان أهدافه التي يريد نقلها للمشاهد، هذه الأهداف تؤكّد لنا أنّ الاختلاف ممكن داخل الوطن الواحد وأنّ جغرافياه مهما كانت متشابهة إلا أنّه لكلّ فنان نظرته للأمكنة خاصة في عصرنا هذا.

- توصيات البحث والاستنتاجات:

نخلص بالقول، إنّ اختلاف الأنماط الموسيقية يختلف باختلاف المناطق والمدن، وتختلف معها اللهجات والعادات والتقاليد والثقافات وحتى الأفكار والمعتقدات داخل الوطن الواحد، وهذا الاختلاف ليس إلا تكاملا بين منطقة وأخرى وبين إنسان وآخر لخلق فسيفساء وطنه التي ترتسم في الخريطة. وقد أكد الفنان التونسي في الآونة الأخيرة أنّ للهويّة بمختلف تعريفاتها ومختلف مجالاتها التي تنهل من الوطن والمواطنة مكامن المخزون والموروث الجماعي ومتجدداتها الثقافية تأثيرها على جماليات الصورة التشكيلية وفرادية الطرح الفنيّ حتى بتقيدهم بجغرافيا الوطن.

إن الفن في تونس يقدّم أعمالا وممارسات تنافس في العالم التشكيلي الذي أضحى متقلّبا ومتجددا في نفس الوقت، لذلك نرى أن التنوع في التقنيات والأساليب والآراء الفنيّة التي تنقد بدورها هذا التحوّل الفنيّة، اجتاحت العالم بأسره فكان لتونس نصيبا منها. يعود هذا التحوّل إلى انفتاح التجارب التشكيليّة العالميّة على بعضها البعض وتجاوز مفهوم الفن الحديث والفن الكلاسيكي. ولأنّ الفن متقلّب فلا عجب في عودة المفاهيم القديمة للظهور من جديد وتقديمها بنَفَس معاصراتي يربط العلاقة بين ما هو قديم وما هو آني مثل البدايات التي نشأت فيها علاقة الفنان بالمكان والتي تكوّنت بالتدريج منذ خروج ذلك الفنان من ورشته منطلقا نحو اكتشافه للمكان والطبيعة، أو أوّل التجارب التشكيلية التي نشأت بين الفنّ والجغرافيا في رسم خرائطيّة المكان التي كانت من أول التجارب الفنيّة للإنسان البدائي عند تعرّفه على المكان وبدايات فهمه للقوانين الكونيّة الذي تسير عليه الحياة من أجل العيش ضمن المجموعة وجعل من المكان انعكاس للهويّة.

أنّ مجتمعنا متنوع في بيئته ومختلف في جغرافياه لكنّه أيضا موحّد في إطار التنوعات الاجتماعيّة تلك خاصة في ما يخص واقعه وأهدافه التي تؤمن بالتعايش في ذلك التنوّع وقبول الآخر. إذ تصبح الخصوصية مطلبا كونيا للاعتراف بحقوق الاختلاف والتفرّد. أما الفنّ فهو انعكاس للواقع بكل ما يحتويه من تجاذبات واختلافات في الرأي. لذلك تختلف الممارسات التشكيلية المعاصرة بين فنان وآخر في نقل جغرافيا الأوطان، وكذلك اختلفت الممارسات التونسية التي تفرّد فيها كل فنان في نقل تجربته مع المكان وتعلّقه بالوطن ونظرته إلى الواقع. لذلك عمل الفنان التونسي على إنتاج تجربة تشكيليّة نابعة من ذاته وتحكي عنه ويتفرّد في تشكيلها حسب ما تمله عليه أفكاره وحسب ما تأخذه له توقعاته الفنيّة الجماليّة. فنجده يفرغ كل ما يثير روحه ويقلق تفكيره تجاه الوطن. ليكون للوطن وجوه عدة بعين الفنان التشكيلي التونسي المعاصر. تلك الوجوه هي وليدة اختلافات الطبقات الاجتماعيّة واختلاف الأمكنة الجغرافيّة وأيضا اختلاف الاهتمامات الفنيّة.

ولأن صورة الوطن ليست دائما مثاليّة في التجارب التشكيلية المعاصرة، فهي قابلة للنقد وحتى للتهكّم، خاصة عندما يتعلّق الأمر بقضايا المجتمع والسياسة وحتى الثقافة والثغرات التي تنجرّ عنهم، فإن الفنان لا يجد إشكالا

[13] العيدروس، على حسن، "ثوابت الهويّة الثقافيّة الوطنيّة وعلاقتها بالمكان"، صحيفة 26 سبتمبر، ادب وثقافة، العدد 1371، الخميس 07 فبراير-شباط 2008، ص 6.

في نقد صورة الوطن تلك مهما كان ذلك النقد لاذعا أو ساخرا، فهو يجد في كل مرة حلولا نقديّة يقترحها ظاهرة كانت أم مخفية وراء ذلك النقد. أما أن تصبح الجغرافيا هي ذلك الوسيط الذي بين الفنان والمتقبّل في نقل مثل تلك القضايا فالأمر يبدو مختلفا. لأنّ الجغرافيا التونسية متنوعة بحيث تقترح التنوع التشكيلي.

المصادر والمراجع:

طارق حسن، "دستورانيّة ما بعد انفجارات 2011: قراءات في تجربة المغرب وتونس ومصر"، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الطبعة الأولى، بيروت، 2016، ص 56.

طارق حسن، "دستورانيّة ما بعد انفجارات 2011: قراءات في تجربة المغرب وتونس ومصر"، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الطبعة الأولى، بيروت، 2016، ص 55.

لاكوست جان، فلسفة الفن، تعريب ريم لامين، عويدات للنشر والطباعة، بيروت، لبنان، 2000، ص7

بسمة منصور، إبداع السخرية وسخرية الإبداع في الفن التشكيلي . تجربة عائشة الفيلالي نموذجا، الحوار المتمدن-العدد: 4766 - 2015 / 4 / 2 - 14:29، المحور: الادب والفن، الموقع: http://www.ahewar.org/

بسمة منصور، إبداع السخرية وسخرية الإبداع في الفن التشكيلي . تجربة عائشة الفيلالي نموذجا، الحوار المتمدن-العدد: 4766 - 2015 / 4 / 2 - 14:29، المحور: الادب والفن، الموقع: http://www.ahewar.org/

بسمة منصور، إبداع السخرية وسخرية الإبداع في الفن التشكيلي . تجربة عائشة الفيلالي نموذجا، الحوار المتمدن-العدد: 4766 - 2015 / 4 / 2 - 14:29، المحور: الادب والفن، الموقع: http://www.ahewar.org/

روشكا ألكسندر ، الإبداع العام والخاص، ترجمة: غسان عبد الحي أبو فخر، ص 22 و23

طارق حسن، "دستورانية ما بعد انفجارات 2011: قراءات في تجارب المغرب وتونس ومصر"، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، 2016، ص 50

قراميأمال ، مقال تحت عنوان "قد آن أوان إزالة الحجب" من مؤتمر فيلادلفيا التاسع عشر "المرأة التجليات وآفاق المستقبل"، جامعة فيلادلفيا كلية الآداب والفنون، 2016، ص 18

ستالابراس "جوليان"، "الفن المعاصر، مقدمة قصيرة جدا"، ترجمة "مروة عبد الفتاح شحاتة"، مراجعة "ضياء ورّاد"، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، الطبعة الأولى، مصر 2014، ص 57

قسومي طلال،"سجال الهويّة بين ثنائية الغرب-الشرق في الخطاب التشكيلي العربي المعاصر –قراءة لتجربة – منير فاطمي"، الأدب والفن، 2013/01/16. m.ahewar.org

قرامي أمال ، مقال تحت عنوان "قد آن أوان إزالة الحجب" من مؤتمر فيلادلفيا التاسع عشر "المرأة التجليات وآفاق المستقبل"، جامعة فيلادلفيا كلية الآداب والفنون، 2016، ص 17ذ

العابد وسام، العربي الجديد، تونس، 14 سبتمبر 2017. Alaraby.co.uk

العابد وسام، العربي الجديد، تونس، 14 سبتمبر 2017. Alaraby.co.uk

العابد وسام، العربي الجديد، تونس، 14 سبتمبر 2017. Alaraby.co.uk

العيدروس، على حسن، "ثوابت الهويّة الثقافيّة الوطنيّة وعلاقتها بالمكان"، صحيفة 26 سبتمبر، ادب وثقافة، العدد 1371، الخميس 07 فبراير-شباط 2008، ص 6.